ثـلاثـة مـن أدبـائنـا

تكاد نهضتنا الأدبية تودع عصر الانتقال لكي تستقبل عصرا جديداً ثابت الأسـس واضح الأغراض، ولقد قام بذا العمل العظيم، عمل الانتقال والتوجيه، أدباء كبار مـا زالوا يغذون أدبنا بنفثات حارة من أرواحهم السامية، ولو أردنا أن نوفي كلا منهم حقه لطال بنا المقال إلى غير نهاية ولكنما نريد أن نتكلم على ثلاثة منهم نرى أنـهم الممثلـون لنهضتنا في نواحيها المختلفة، ولسنا نتحدث عنهم كنقاد أو مؤرخين وإنما كقراء اتصلت نفوسهم بنفوسهم زمنا طويلاً وتأثرت بها تأثيرا كبيرا هؤلاء الثلاثة هم: العقاد وطه حسين وسلامة موسى

العقاد: العقاد هو رجل البداهة، ونقصد بالبداهة الفطرة البـصيرة أو الإحـساس الصادق أو الطبع السليم، ونقصد بذلك تلك الموهبة الطبيعية التي تنفذ إلى الحقائق فتعرف ماهياتها، وهي درجة من الكمال يبلغها الصوفي بالاجتهاد ويحوزها الفنان بفطرته وطبعه، وإذا أردت أن تتحقق مما نقول فاقرأ شعر العقاد – والعقاد في نظرنا شاعر فنان قبل كـل شيء – فمن أهم مميزاته أنه ليس قشورا سطحية، وليس نغماً لفظياً، وإنما هـو معـنى عميق تذوقه وتحسه، وتعرف فيه روحاً حياً يكاد يتحرك ويتغير كلما راجعته، وهـذه خواص النفس التي يعجز العقل والذكاء عن أن يلجأ بابا والتي تنفذ إليها البصيرة الحساسة المرهفة فتلتقطها بما فيها من حياة وغموض.

وأثر الفطرة السليمة يظهر فيما يدعو إليه العقاد مـن تجديـد في الـشعر والأدب، والتجديد عند العقاد ليس هو التجديد عند غيره فنحن نفهم من التجديد عادة أنه الدعوة لمذهب جديد على حساب مذهب قديم كالدعوة إلى الرياليزم أو الايديالليزم وهكذا ولكن العقاد لا يدعو إلى مذهب خاص وإنما يثور على التقليد والفناء في الغير ويدعو إلى تحريـر العقل والشعور، اعقل بعقلك واشعر بشعورك، ومثل هذا المبدأ يتناقض مع الـدعوة إلى مذهب معين، لأن الدعوة إلى مذهب معين هي نوع من التقليد، وأنك إذا قلدت العقاد فلست من أتباع العقاد ! وهذا الرأي يجعل من الفن حياة كهذه الحياة المتجددة المـتغيرة المطردة السير إلى الأمام، والعقاد يسمو بالأدب إلى الذروة من الكمال والتبجيل وهـذا

طبيعي، لأن ملكته ملكة المتصوف وكيف تطلب من المتصوف ألا يبجل معبوده الـذي يوحى إليه بأسرار الغيب ؟

طه حسين: أما طه فهو رجل الذكاء، وهو يظهر في مكانتين من أهـم مكاناتـه، البساطة والسخرية، وأنك لتقرأ لطه حسين فلا تعثر على كلمة شاذة أو جملة معقـدة أو تعبير ملتو أو فكرة غامضة، وإنما تفهم كل ما يريد أن يفهمك إياه وأنت مرتاح سعيد في نشوة وصفاء، وليست هذه السهولة مما يدل على سهولة الموضوع الذي يعالجه الكاتب أو على ابتذاله وكأنما دلالة على الذكاء النافذ، الذكاء الرياضي – أو الذكاء الفرنـسي أن شئت – الذي لا يطيق الغموض أو التعقيد والذي يعطى محصوله بسيطاً بساطة البديهيات الرياضية وأن كان تمثيله وهضمه من أعسر الأمور، فهذا هو السهل الممتنع حقاً

أما السخرية فشديدة الوضوح في أسلوب طه وتصويره للأمور، وهي في ماهيتها جمع للمتناقضات عن طريق الإشارة الخفية واللمحة البعيدة وقوامها قوة الملاحظة والانتباه الشديدين

والذكاء يؤدى للشك وقد كان الشك أساس البحث عند طه حـسين، ذلـك البحث القيم الذي صار نموذجاً للمفكرين والذي أحدث أثرا كبيرا في بعث الآثار الأدبية الإسلامية.

سلامة موسى: يمتاز الأستاذ سلامة بتفكير عملي، ومن شأن هـذا الـتفكير ألا يكترث كثيرا للنظريات ألا يركن إلى النظر المرد والتأمل الفني، وكل ما يهمه من النظرية أن يطبقها، لأن همه منصب على الحياة وعلى الكمال في هذه الحياة، والإنسان لا يذكر الأستاذ سلامة حتى يذكر داروين ونظرية التطور، ولهذه النظرية اثر بالغ في نفس الأستاذ وهي اصل مثله العليا للإنسان والحياة الاجتماعية، واهم شـاغل لـه هـو الإصـلاح الاجتماعي وله جولات عظيمة وتضحيات كبيرة في سبيل التجديد الديني وتحرير المـرآة ورقى الفلاح والعامل، وقد كان الداعي الأول إلى الوطنية الاقتصادية وكان لدعوته اثـر كبير في نفوس الشبان مما نرى مظاهرة قوية حية يطرد نموها يوماً بعد يوم. وعلى العموم فهو مجدد أدبي كبير إلا أنه لا ينظر للأدب كغاية وإنما كوسيلة الإصلاح والرقى في المتمع والحياة.

وطريقته في الدعوة ليست عن سبيل المنطق والجدل بقدر ما هي عن سـبيل علـم النفس، فهو يقرر ما يريد في عبارات قصيرة واضحة ويكررها كثيرا حتى تثبت في النفس وتصير كإحدى عناصرها الموجهة، ولذلك ترسخ مبادئه في النفوس وتؤثر في أعدائه قبل أنصاره

* * *

أحب ألا تفهم مما كتبت أن هذه المميزات التي أضفتها إلى هؤلاء الكتاب هي كـل مالهم وإنما هي التي تبرز فيه، م وهل ينكر إنسان أن للعقاد أبحاثاً هي مثال التفكير المستقيم والعبقرية الفكرية ؟ وهل ينكر أحد أن لطه حسين آثارا أدبية بلغت الـذروة في جمالهـا وقوتا وهل ينقر قارئ أن لسلامه موسى مقالات وكتباً في النقد كخير ما كتب في هذه المواضيع ؟

أما إذا أردنا التقسيم والتحليل – وهو طبع العقل – فيحق لنا أن نقول أن العقاد هو روح النهضة الأدبية وطه حسين عقلها وسلامه موسى إرادتا.